سورة النور — نموذج قرآني متكامل لبناء المجتمع وصون تماسكه



د. محمود محمد إسماعيل

يُقدِّم هذا البحث قراءة في سورة النور بوصفها نموذجًا قرآنيًا متكاملًا لبناء المجتمع وصون تماسكه، منطلقًا من خصائص النور الفيزيائية بوصفها بنية مجازية تُرسم عليها المنظومة الاجتماعية الكاملة للسورة. ويرى البحث أن القرآن الكريم قد أرسى، قبل أربعة عشر قرنًا، أُسسًا تجمع عليها اليوم أرسخ نظريات علم الاجتماع دون أن تبلغ كمالها، مما يجعل هذا النموذج القرآني مرجعًا حضاريًا لا مجرد موضوع مقارنة أكاديمية.

١ — المقدمة: سورة النور كنموذج لبناء المجتمع

تُعَدُّ سورة النور من أكثر السور القرآنية تماسكًا في بنائها المفاهيمي، إذ تُقدِّم منظومة شاملة لبناء مجتمع راسخ على الطهارة الأخلاقية والتنظيم الاجتماعي الدقيق. ولا تقتصر السورة على بيان الأحكام الشرعية، بل تتجاوز ذلك لتؤسس علاقة متوازنة بين الفرد ونفسه، وبين الفرد ومجتمعه، في إطار من الهداية الربانية التي لا ترتكز على القسر، بل على التحوّل الداخلي الذي يسري من القلب إلى السلوك ومن السلوك إلى البناء الجماعي. ويأتي اسم السورة — «النور» — مفتاحًا أساسيًا لفهم هذا البناء؛ إذ لا يُحيل إلى الضوء الحسي وحده، بل إلى نور الهداية الذي يكشف الحقائق ويُبدد ظلمات الجهل، ويُقيم مجتمعًا واضح المعالم في سلوكه وقيمه ومسالك التفاعل بين أفراده.

٢ — مفهوم النور: من الخصائص الفيزيائية إلى البناء الاجتماعي

للنور في خصائصه الفيزيائية المعروفة خمس سمات جوهرية: الإضاءة، والكشف، والانتشار، والتنقية، والتراكم. وهذه السمات تتحول في سورة النور إلى أدوات هندسية لبناء المجتمع: **أولًا — الكشف:** تجلّى في حادثة الإفك، حين أظهر الله الحقيقة وأبطل ما راج من شائعات، كاشفًا أن الزيف لا يصمد أمام نور الوحي. **ثانيًا — التنقية:** تحققت عبر تشريعات العفة وتحريم الزنا والقذف، مما يصون المجتمع من التلوث الأخلاقي. **ثالثًا — الانتشار:** يتجلى في انتقال القيم من الفرد إلى الأسرة ثم إلى المجتمع الأوسع، عبر منظومة من الآداب اليومية كغض البصر والاستئذان. **رابعًا — التراكم:** يجد تعبيره الأعمق في قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ في إشارة إلى تضافر الفطرة مع الوحي والعمل الصالح. **خامسًا — الإضاءة:** وهي المآل الأخير؛ مجتمع يرى ما حوله في ضوء الحق، لا يتخبط في ظلمة المعايير المضطربة.

٣ — النور كمنظومة قيم: المعادلة القرآنية للتماسك

النور = الهداية + الطهارة + وضوح الحق + حماية المجتمع من الفساد

وهذه المعادلة ليست تبسيطًا أكاديميًا، بل هي حصيلة منطق داخلي متسق ينتظم السورة من أولها إلى آخرها: فالهداية هي المصدر، والطهارة هي الشرط، ووضوح الحق هو الميزان، وحماية المجتمع من الفساد هي الغاية.

٤ — انتشار القيم: التسلسل القرآني في بناء المجتمع

يكشف ترتيب أحكام سورة النور عن آلية تدريجية دقيقة في بناء القيم الاجتماعية، إذ تبدأ السورة من الداخل لتصل إلى الخارج وفق مسار ثلاثي التدرج: ضبط سلوك الفرد — غض البصر، الاستعفاف، الاقتداء بالصالحين؛ تنظيم الأسرة — آداب الاستئذان، حماية خصوصية البيت، تأديب الخادم والطفل؛ حماية المجتمع — تحريم الإفك والقذف، التثبت من الأخبار، صون أعراض المسلمين. وهذا التسلسل يعكس حكمة تشريعية عميقة: القيم لا تُزرع من الخارج بالإكراه، بل تُبذر داخل الفرد وتُنقل بالقدوة والتفاعل اليومي حتى تصبح جزءًا من الهوية الجماعية المشتركة.

٥ — حماية المجتمع من الانهيار: الإفك والقذف والشائعة

المجتمعات لا تنهار فجأة بسبب قوى خارجية، بل تتآكل من الداخل حين تختل ثلاثة عناصر: الثقة، والقيم، والمعلومة. وقد عالجت سورة النور هذه العناصر الثلاثة بيد واحدة: فتحريم القذف والتشديد في عقوبته صونٌ للثقة الاجتماعية التي بدونها يتفكك كل نسيج. والنهي عن إشاعة الفاحشة والأمر بالتثبت من الأخبار حماية من التضليل والشائعة التي تُحرق المجتمعات من الداخل. وفي حادثة الإفك نموذج إجرائي حيّ: حين انتشرت الشائعة تدخل الوحي ليُعيد بناء الثقة بقضاء إلهي قاطع — وهذا ما يمثّل أعلى درجات الحماية الاجتماعية المتخيَّلة.

٦ — آية النور: النموذج المفاهيمي الأعلى

> ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]

وهذه الآية لا تُقدِّم وصفًا إيمانيًا مجردًا، بل تضع أساسًا نظريًا عميقًا لكيفية نشوء النور في القلب وتحوّله إلى قوة فاعلة في بناء المجتمع، ويتضح هذا في التشبيه المركّب الذي يستدعي عناصر أربعة متكاملة: القلب — المشكاة التي تحتضن النور؛ الإيمان — المصباح الذي يشعّ من داخلها؛ الوحي — الوقود الذي يغذّي هذا النور ويضمن استمراره؛ الفطرة السليمة — قابلية الاشتعال التي تُهيّئ الإنسان لتلقي الهداية. وحين تتضافر هذه العناصر لا ينتج نور بسيط، بل نور متراكب متضاعف — «نور على نور» — في دلالة على أن التماسك الحقيقي لا يأتي من قانون مفروض بل من إيمان راسخ يُنتج مجتمعًا في دورة متصاعدة.

٧ — بيوت الله: البيئة الحاضنة للنور الاجتماعي

> ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]

كما أن النور الحسي يحتاج إلى وعاء يحفظه ويُظهر إشعاعه، فإن النور المعنوي يحتاج إلى حاضنة اجتماعية تتجلى فيها ثمرة الإيمان وتترسخ القيم وتُمارَس الشعائر الجماعية. وتمثل المساجد هذا الفضاء الحيوي الذي تتحول فيه الهداية الفردية إلى ظاهرة اجتماعية، حيث يجتمع الذكر والعبادة والتزكية في إطار يُعزز الروابط ويُرسّخ الهوية المشتركة. وفي هذا السياق يُقدِّم القرآن نموذجًا لمؤسسة اجتماعية تجمع في آنٍ واحد بين الغذاء الروحي والتنظيم القيمي وصون الرابط الجماعي — وهو ما لم تبلغه مؤسسة حديثة في اندماج مماثل بين الأبعاد الثلاثة.

٨ — آية الاستخلاف: ثمرة النور الحضارية

> ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]

وفي هذه الآية تتجلى النتيجة الكبرى لمسار النور: النور الذي بدأ في القلب، وانضبط في السلوك، وتجلّى في المجتمع، يُثمر في نهاية المطاف تمكينًا حضاريًا قائمًا على ثلاثة أركان: التمكين: قدرة المجتمع على الفعل والتأثير والاستمرار؛ الأمن: استبدال الخوف بالطمأنينة نتيجة استقرار القيم والثقة المتبادلة؛ الاستقرار: انتظام العلاقات وترسُّخ المعايير المشتركة. وهذا قانون قرآني دقيق: التمكين ليس نقطة بداية تُفرض من الخارج، بل نتيجة طبيعية حتمية لتراكم النور الإيماني والأخلاقي داخل المجتمع. وبذلك تكتمل صورة السورة: نور في القلب ← انضباط في السلوك ← احتضان في المجتمع ← تمكين في الأرض.

٩ — القيادة والمرجعية: البعد التنظيمي للنور

لا يقتصر بناء التماسك الاجتماعي في سورة النور على ترسيخ القيم الأخلاقية الفردية، بل يستلزم وجود مرجعية قيادية واضحة تُنظِّم هذه القيم وتوجّهها. وتتجلى هذه المرجعية في آيات الطاعة والاستئذان التي تُؤطِّر التفاعل بين الفرد وقيادته، وبين الفرد ومجتمعه، ضمن هيكل اجتماعي تراتبي يقوم على الاحترام لا على الخوف، وعلى الثقة لا على الطاعة العمياء. فطاعة الرسول ﷺ آلية تنسيقية تضمن انسجام السلوك الفردي مع المصلحة الجماعية — لكنها طاعة تستند إلى اليقين الإيماني، أي أنها طاعة يُولِّدها النور لا تُفرضها القوة. وهذا الفارق الجوهري هو ما يجعل النموذج القرآني في القيادة أعمق بنيةً وأكثر استدامة من كل نموذج تنظيمي وضعي.

١٠ — الخاتمة: السبق القرآني ومكانته بين النظريات المعاصرة

يتضح مما سبق أن سورة النور ليست مجموعة من الأحكام المتفرقة بل نموذج حضاري متكامل لبناء مجتمع متماسك، منسجم البنية، واضح الغاية. وهذا النموذج يسبق بأربعة عشر قرنًا كلَّ ما توصل إليه علم الاجتماع الحديث في باب التماسك الاجتماعي وبناء رأس المال الاجتماعي وحماية المجتمع من الانهيار. فما توصل إليه روبرت بوتنام في نظرية رأس المال الاجتماعي — من أن التعاون الاجتماعي يقوم على الشبكات الاجتماعية والمعايير المشتركة والثقة المتبادلة — قرّره القرآن بتشريعات عملية تبني الثقة وتصون الشبكات وتُرسّخ المعايير. وما صاغه إميل دوركهايم من أن استقرار المجتمع يقوم على القيم المشتركة التي تمنع الأنومي (التفكك القيمي) — أرساه القرآن بآداب دقيقة تُشكّل هوية جماعية لا تحتاج إلى عقد اجتماعي خارجي لأن مصدرها الضمير الداخلي. وما تصفه نظريات انتشار القيم من آلية التدرج من الفرد إلى الأسرة إلى المجتمع — مثّلته السورة في ترتيب أحكامها قبل أن تُصنّفه الأكاديميا. وما تُسمّيه النظريات الحديثة مخرجات التماسك الاجتماعي — من تمكين وأمن واستقرار — وعد به القرآن صريحًا في آية الاستخلاف. غير أن الفارق الجوهري بين النموذج القرآني وهذه النظريات فارق في المصدر والعمق والشمول: فالنظريات وصفت ظاهرة واقترحت حلولًا جزئية، بينما القرآن أسّس منظومة متكاملة ابتداءً من القلب وانتهاءً بالحضارة، تجمع بين الباعث الداخلي والأثر الخارجي في وحدة لا تشقّها ثنائية العقل والروح أو الفرد والمجتمع. خلاصة القول: إن سورة النور ليست نصًا يُفسَّر في ضوء علم الاجتماع، بل هي مرجع سبق علومَ الاجتماع ولم يبلغ علم الاجتماع حتى اليوم كمالها.

المراجع

أولًا — المصادر الإسلامية: ابن عاشور محمد الطاهر. التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر؛ 1984. | السعدي عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. الرياض: دار السلام؛ 2000. | الماوردي أبو الحسن علي بن محمد. النكت والعيون. بيروت: دار الكتب العلمية؛ 1992.

ثانيًا — المراجع الغربية: Putnam RD. Bowling Alone. New York: Simon & Schuster; 2000. | Durkheim E. The Division of Labor in Society. New York: Free Press; 1997. | Delhey J, Newton K. Eur Sociol Rev. 2005;21(4):311–27. | Fonseca X et al. Int J Soc Res Methodol. 2019;22(2):231–45. | OECD. Social Cohesion in a Shifting World. Paris: OECD Publishing; 2012.